محمد العيد

كبير شعراء الجزائر

بقلم ابو القاسم سعد الله

تمهيد :

محمد العيد شاعر معاصر خدم الادب العربي في الجزائر ونهض به بعد ان كادت موجة التفرنس تبتلعه اثر الزحف الذي قامت به الثقافة الفرنسية على معالم تراثنا القومي ابان الاحتلال .

وهناك عوامل كثيرة جعلت محمد العيد كبيرا لشعراء الجزائر او اميرا لشعرائها كما كانوا يطلقون عليه : منها انه جاء بعد ان نضج الشعر العربي في المشرق وكثرت مدارسه ومذاهبه ودخله كثير من التجديد والتلوين على يد شعراء المهجر والمتأثرين بالشعر الغربي من المشارقة انفسهم . ومنها ان اكثر تجاربه كانت مستوحاة من صميم الحياة الشعبية بما فيها من صراع وهدوء وشقاء وامل . ومنها انه جاء بعد فترة ركود ثقيلة في الحركة الادبية والشعرية على وجه الخصوص .. حتى لقد غلب على ظن المتشائمين انها لن تستطيع النهوض ثانية واستعادة نشاطها وصلتها بتيار الادب في المشرق لا سيما بعد ذلك الكابوس الرهيب الذي شل حركة الفكر عموما في الجزائر وحركة الادب بوجه خاص اثر العهد الطويل الذي مكثه الاحتلال والوسائل التي لجأ اليها للقضاء على كل ما هو عربي .

فقد بقيت الحركة الادبية متجمدة متخذة من وسائل التعبير القديمة غذاء لها في تاريخها مدى العهدين التركي والفرنسي لم تحاول ان تضيف جديدا او تلقح قديما او تسرع الخطى الى ما هو افضل واجمل . وكان ادباء هذا العهد من ناثرين وشعراء لا يحسون بما حولهم من ضجيج الحياة وصخب الزمن بل صموا آذانهم وغالطوا حواسهم حتى لا تشعر بما حولها . من هؤلاء مثلا المولود بن الموهوب الذي كان ينظم في الصبر والصلاة وفي المودات واهل القرابة وفي الفقه والمتون ومنهم ابراهيم ابو اليقظان الذي كان ينظم في الاقليمية الضيقة ويتحدث عن الشريف ابن العفيف فلان وعن سيرة الشهيد بن سلسلة الذهب صاحب المقامات وغير هذين من الشعراء الذين كانوا بعداء عن الواقع المر الذي يحياه الشعب الجزائري وعن العصر الذي يتقلبون فيه .

وتاتي بعد ذلك مرحلة اخرى كان لا بد لحركة التطور ان تمر بها وهي المرحلة التي ظهر فيها شعراء حاولوا الاتصال بالحياة العامة فوفقوا الى حد في اختيار الموضوعات على الاقل ولكنهم ظلوا متأثرين بالماضي السحيق يجرجرون خلفهم التعابير الجاهزة ويلوكون صيغ الاقدمين ومن هؤلاء احمد الغزالي ومحمد اللقاني وسعيد الزاهدي فقد وجدنا في شعرهم وشعر من سار في دربهم حديثا عن الصراع بين الثقافتين : العربية والفرنسية ووصفا للحياة الاجتماعية بما فيها من فقر وجهل وحزبية وتخلف ولكننا لم نجد في شعرهم اصالة التعبير ولم نحس بمرارة العاطفة او روعة الموسيقى خلال تجاربهم المختلفة .

مع الحياة :

وقد يكون من الصدف ان يولد محمد العيد في الجزائر في نفس السنة التي توفي فيها البارودي في مصر فقد ولد عام ١٩٠٤ في مدينة (العين البيضاء) من اسرة دينية سلفية وتعلم العربية وفروعها على والده والمثقفين من اسرته . ثم انتقل منها الى (بسكرة) على ابواب الصحراء حيث تابع دراسته المعروفة في ذلك الوقت . وفي عام ١٩٢٢ تاقت نفسه للذهاب الى تونس للحصول على شهادة (التطويع) من جامع الزيتونة الذي كانت له شهرة دينية وثقافية في المغرب العربي كمعقل اسلامي عربي قديم . وقد زاد من شوق محمد العيد لتحقيق هذه الامنية ان بشائر النهضة القومية كانت قد اخذت تروج وتبعث الامال في النفوس التي ظل يساورها اليأس حوالى قرن من الزمان .. فقد نشط السياسيون من جهة يدافعون عن الحقوق السياسية والاجتماعية ونهض من جهة اخرى من دعاة الاصلاح القومي بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس ينادون بتحرير الدين من فرنسا وانقاذ اللغة العربية وثقافتها ووسائلها التي كادت تتلاشى بفعل الاحتلال البغيض .

وفي جامع الزيتونة حاول العيد ان يكون شخصية مثقفة راسخة المعلومات تجمع بين القديم والحديث ، بين الحياة الدينية التي ورثها ابا عن جد وبين الحياة المادية التي يعيش تحت شمسها ويتنفس هواءها صباح مساء ولكن هذه المحاولة لم يقدر لها ان تتم حتى تحقق النجاح فقد عاد الشاعر بعد نحو عامين الى الجزائر لاسباب عائلية فاستقبلته الحياة الجديدة التي فرضها الوعي السياسي الذي اخذ يعم ارجاء البلاد على الخصوص في المدن الكبيرة حيث تنتشر الثقافة وتقرأ الصحف وتعلن المذاهب السياسية المتنافرة . ولم يجد الشاعر بدا من الاندماج في هذا الجو والمشاركة في الحياة التي كانما اعدت له او اعد لها ، حياة المدرسة والتعليم وتربية النشء الجديد .

وقد كان للشيخ ابن باديس اثر كبير في هذا الاختيار الذي يبدو في الواقع اضطرارا فقد رشحه الشيخ لادارة (مدرسة الشبيبة) التي كانت مدرسة شعبية انشاها الخيرون من ابناء الجزائر لكي تؤدي رسالة تربوية وثقافية ولهذا اطلقوا عليها (مدرسة الشبيبة الاسلامية) وقد رجا اولئك المصلحون من الشيخ ان يختار لهم اكفأ رجاله العاملين في الحقل الثقافي فكان محمد العيد. ونحن لا نجد في شعره اية اشارة الى هذا الاختيار او هذه الظروف فهل كان للشاعر يد في هذا

الاختيار ؟

وقد يتساءل الباحث عن الاسباب التي جعلت محمد العيد يرضى بالبقاء في هذه المدرسة اكثر من اثني عشر عاما فهل كان هذا الرضى تحت ضغط الحياة المادية وحدها او كانت هناك عوامل اخرى ؟ الواقع ان الشاعر اجاب عن هذا السؤال بكل صراحة وذلك حين سمع بعض اصدقائه يتهامسون بازدراء وظيفته وينتقدونها بانها مجلبة للهموم والاوجاع ويزعمون انه انما يضيع وقته مع هؤلاء الصغار الذين لا يفقهون ما يلقى عليهم فقد اجاب الشاعر اولئك الاصدقاء بانه راض كل الرضى عن مهنته وانه يعلق على تلاميذه الصغار آمالا فساحا ! فهم سيروون عنه الشعر وسيجعل منهم طلائع تذود عن الوطن والاسلام والعروبة وسيكون منهم الخطيب المصقع والاديب والشاعر المبدع والزعيم المناضل وذلك اذ يقول :

أرى جل اصحابي ازدروا بوظيفتي ... وقالوا هموم كلها ووجائع
وقد زعموا عمري مع النشء ضائعا ... وتالله ما عمري مع النشء ضائع
سيروون عني الشعر والعلم برهة ... وتطلع للاسلام منهم طلائع
فمنهم خطيب حاضر الفكر مصقع ... ومنهم اديب طائر الصيت شائع
ومنهم ولوع بالقوافي لفكره ... بدائه في ترصيفها وبدائع
ومنهم زعيم للجزائر قائد ... له في مجالات الجهاد وقائع

لقد مكث الشاعر طويلا في هذه المهنة دون ان يعتريه سأم او يطمح الى ترقية حتى قيام الحرب العالمية الثانية تقريبا . وفي هذه الاثناء تكدر الجو بينه وبين من لم يقدروا جهاده وفنه فخاب امله واعترته ازمة اثرت عليه تأثيرا حادا جعله يصمت حينا ثم يتجه بشعره اتجاها صوفيا ويختار الهروب من الناس ومن الاصدقاء فيقول في الاولين :

ظننت في الناس خيرا ... فخاب ظني وخبت
كم قلت شيئا كثيرا ... في مدحهم وكتبت
لقد كذبت فحسبي ... في شأنهم ما كذبت
وليت نحوك وجهي ... وتبت يا رب تبت

وفي الاخرين يقول :

وبين حشأي بربي رفيق ... صددت على الرفاق به اكتفاء
ان صادقوا فادعاء ... او صاحبوا فانتفاعا

لانهم لا يخلصون في صداقتهم ولا يصاحبون الا لمصلحة ذاتية .

وتقسو عليه هذه الازمة حتى تكرهه على ترك العاصمة والعودة الى بسكرة حيث الطبيعة مجردة صافية وحيث الناس البسطاء والهدوء الشامل فيقضي بها مدة لا ندري بالضبط امدها او العمل الذي اداه اثناءها وكل ما يمكن استخلاصه من المعلومات التي لدينا عنه انه بقي هناك مدة الحرب العالمية الثانية وانه قد يكون مارس التجارة مع اخوته الذين يحترفونها منذ زمان وانه قد امسك عن قول الشعر او على الاقل لم ينشر ما نظمه في هذه الظروف .

وعلى كل فقد عاد الى مهنته (التدريس) حين ذهب الى باتنة المدينة الساحرة التي تجمع بين روعة الشمال وبساطة الجنوب وبقي بها مدة مديرا لمدرستها العربية وقد حدثنا بعض رفاقه والمتصلين به بانه قد عانى من قسوة الحياة وجفاء الاصدقاء ما جعله يزداد شكا في الانسان وفي قدرته على تحقيق رسالة الخير والحق والفضيلة في هذا العالم ومع ذلك فلم يطأطىء رأسه للعاصفة بل استمر في كبريائه وشموخه يكافح في جبهتين : الاولى جبهة الياس والجحود لكي يعيش والثانية جبهة الاحتلال الثقافي للفته وقوميته لكي ينتصر .

ومن باتنه انتقل باسرته وكبريائه وافكاره الى (عين مليلة) حيث بها يناضل بايمان الواثق بالنصر :

كما شئت فامطل يا زمان ببلغتي ... او ابخل بها عني فما انا يائس
احتسب اني للحوادث راضخ ... واني منها جازع القلب بائس
سيأتي زمان للجزائر زاهر ... يطيب الجنى وتنمو الغارس

وفي احضان هذه القرية الصغيرة الجميلة عاد محمد العيد الى الشعر بعد ان شاقه الفجر الجديد وجدد اماله بالناس وبالمستقبل وبعد ان تساءل عنه اصحابه وتلاميذه والمعجبون بفنه فقال يجيبهم جميعا معتذرا بانه كان قد فقد جذوة الشباب مشيرا الى تلك الرحلة المريرة التي قطعها يصارع الاخطار وحيدا من غير ان يجد مسعفا واحدا يواسيه او رفيقا مخلصا يضمد جراحه ويشد من ازره فاستسلم للقدر وفوض امره للقضاء :

ولى عن الصبوات عزمي مدبرا ... ونبا عن الندوات والاشعار
وعدلت متئد الخطى عن رحلة ... في طيها استهدفت للاخطار
وفقدت فيها المسعفين فلم اجد ... سلوى سوى التسليم للاقدار
وجنحت للحرم الذي فارقته ... زمنا جنوح الطير للاوكار

ويتأسف على هذا الطائر الحزين الذي كان يملأ الاذان شعرا والقلوب طربا كيف يدعوه الناس والاصدقاء الى الغناء فلا يحس برغبة ولا يهزه النداء ويتساءل هل كان يخشى الصائدين المترصدين له او انه قد تعرض الى عاصفة هوجاء صيرته لا يلتذ بالغناء ولا بالهديل الموقع

فيا اسفا يدعى الحمام عشية ... ليسجع لكن لا يميل ليسجعا
ترى خاف بعض الصائدين يصيبه ... فيسقط مكسور الجناح مضعضعا
ام التاث من بعض الحوادث لوثة ... بها لم يعد يدري الهديل المرجعا

واستقبل قومه في احدى المناسبات الكبيرة بقصيدة منها هذه الابيات المتحمسة :

نحن الجبال بنو الجبال ... صدى الجبال بنا حدا
من سامنا باذايـة ... فعلى الجبال قد اعتدى
ومن استهان بنا ... استهان بها فحل به الردى

وهكذا خرج الشاعر من عزلته الراكدة ومضى محلقا في الافاق الواسعة يصف احاسيسه بشعر عاطف رقيق او يتحدث عن اماله وامال الشعب ومظالم الغاصبين بشعر رصين هادىء حينا وثائر حينا اخر وعندما قامت الثورة الوطنية الكبرى (نوفمبر ١٩٥٤) كان محمد العيد ما يزال في عين بليلة وقد كتبت الصحافة عام ١٩٥٥ انه قد تعرض الى اضطهادات ومحاكمات قاسية وانه لجأ مرة اخرى الى بسكرة لعله يجد مكانا بلا لهيب ولكنه سرعان ما طاردته النيران وكادت تحرقه لولا ان غادرها الى العاصمة . وقد حالت الكثافات التي اصطنعها الاحتلال دون تتبع اخبار هذا الشاعر بل دون معرفة مصيره في ارض يترصد الموت فيها كل شريف .

ثقافته وتأثره :

من انواع الدراسة التي باشرها محمد العيد نستطيع ان نحكم على لون ثقافته تلك الثقافة في انتاجه واتجاهه . وقبل ان ندخل في تفاصيل هذه الدراسة نحب ان نقول ان الطابع العام لثقافته كان الطابع العربي القديم الذي كان سائدا في الجزائر بصفة خاصة وفي الوطن العربي بصفة عامة فمراكز التعليم العربي لم تكن تتعدى الكتاتيب المنتشرة في القرى

والمدن لتعليم القرآن ووسائل فهمه وتذوقه من نحو وصرف يضاف اليها قليل من المنطق والتاريخ وربما شيء من الرياضيات الاولية ويمكن ان نسمي هذا النوع من الدراسات القرآنية اذ تشمل الى جانب تلك الفنون دراسات اخرى في الفقه والاصول والكلام الحديث والقراءات.

وينتقل الطلبة عادة من تلك الكتاتيب الى الدراسات المسجدية التي تكون في الغالب اوسع وارقى اسلوبا ومادة من الدراسات الاولى ثم ينهون مراحل تعليمهم بالحصول على شهادة تشهد لحائزها بالحذق والاتقان ففي مصر كان الطلبة ينتقلون من الكتاب الى الازهر مثلاوفي تونس يذهبون الى جامع الزيتونة وفي مراكش يقصدون القرويين اما في الجزائر فقد قضى الاحتلال على الدراسات المسجدية باستيلائه على المساجد نفسها ولم يبق الا على دراسات الكتاب في بدائيتها الاولى ولذلك اضطر الجزائريون الذين اتيحت لهم الفرص الى الاغتراب في سبيل التعليم العربي الذي صادره الاحتلال في بلادهم فكان بعضهم يذهب الى الازهر ويتوجه اخرون الى القرويين ولكن اغلبهم ولا سيما منذ الحرب الاولى – كانوا يؤمون الزيتونة بتونس لعدة اسباب : منها قرب هذا الجامع الكبير منهم ومنها المساعدات المادية التي لا يجدونها في غير تونس اذ ذاك ومنها وهو عامل هام ان انتشار التعليم العربي الاولي كان اكثر في مقاطعة قسنطينة اي في الجهة الشرقية المجاورة لتونس بخلاف الجزائر الوسطى والغربية فقد كانت متخلفة نسبيا اذا استثنينا تلمسان من مقاطعة وهران . وقد سار محمد العيد في هذا الطريق الذي وصفناه فدرس اولا على ابيه الذي كان من المتفقهين في الدين على النمط القديم وكانت له شهرة باعتباره احد الرجال الذين ينتمون الى فرق دينية ذات رواسب تاريخية ومذهبية عتيقة . وفي بسكرة توسع في التعليم على رجال اصلاء في الفقه والعربية اذ كانت هذه المدينة عريقة في عروبتها منذ فجر التاريخ العربي وحين قصد الزيتونة لم يبق بها اكثر من سنتين كما مر غير انه خلال هذه المدة يمكن لشاب متوقد الذكاء شغوفا بالثقافة ان يكتسب خبرة واسعة ، والا يقضي اوقاته في غير الدرس والتحصيل خصوصا وهو يعلم انه لم يفارق اهله وارضه الا لاداء هذه المهمة ثم يعود ويعلم ايضا ان من ورائه اباه يرافبه ويصرف عليه وينتظر عودته ربما ليحمل نفس الرسالة ويدخل في الزمرة التي يشرف عليها والده باسم آل خليفة (لقب العائلة) ولم يتفرغ للدراسة وحدها حين رجع الى الجزائر ولم يجد متنفسا في الارض الطيبة التي ولد على ثراها ليستوحي شعره من طبيعتها الساحرة واهلها الكادحين بل وجد الواجب الوطني ينتظره . ومنذئذ دخل الحقل الوطني من اوسع ابوابه وهو باب الثقافة .

ولسنا ندري هل كان من الخير لمحمد العيد الشاعر ان يبقى طليقاينتقل من زهرة جميلة الى اخرى اجمل ويقتطف من ثمار الحياة ما يلذه دون ان يفرض عليه احد الوان الثمار التي يطعمها وان دخوله الى المعركة الحامية بسلاحه الرقيق الوحيد كان اجدى عليه ؟ لسنا ندري ايهما كان الافضل بالنسبة له وان كان من المؤمنين بان دخوله الى خضم الحياة على النحو الذي وصفناه قد طبع شعره بطابع خاص سنذكره حين الحديث عن شعره وصلته بالواقع العربي في الجزائر . واحس انه لم يشبع نهمه من الدراسة وان السلاح الذي منحه له كتاب ابيه اولا وجامع الزيتونة ثانيا لا يمكنه من خوض معركة الثقافة والادب بالذات في عصر يدين بالفكر وبين جيل يعتز بالمعرفة وفي بلد يتطلع الى عهد افضل .

ولذلك عكف على دراسة امهات كتب الادب العربي القديم ممثلة في الاغاني والكامل وبيان الجاحظ ودواوين كبار الشعراء العرب في عصورهم المختلفة فقرأ من الجاهلي امرأ القيس والنابغة وزهيرا ومن الاسلامي حسانا ، ومن الاموي جريرا والفرزدق وابن ابي ربيعة ، ومن العباسي المعري والمتنبي والبحتري وابا تمام وابا العتاهية ولم ينس موشحات الاندلسيين وروائع ابن زيدون ثم الاطلاع على مدارس النثر الادبي في عصورها المتعاقبة ومن هنا لن نعجب حين نقرأ لمحمد العيد شعرا يستمد جذوره من اعماق التاريخ قالبا وموضوعا وعلى وجه التحديد من العصر العباسي . اما في الادب المعاصر فقد قرأ شوقي وحافظا والرصافي وكان تأثره بحافظ بالذات كبيرا لاتفاق اوجه الشبه بينهما في اسلوب الحياة اذ كان كل منهما يستمد من الشعب وسائل قوته وموضوعات شعره ولعلنا نعود الى هذه النقطة حين نعرض لشعره الاجتماعي ومصادره .

واثناء ذهابه الى الزيتونة وتوليه مدرسة الشبيبة او فلنقل في الوقت الذي بدأ يدرس الادب ويتذوقه كانت الى جانب مدرسة شوقي ورفيقيه التقليدية مدرسة اخرى جديدة في ادبنا العربي المعاصر وهي مدرسة جبران ورفاقه وكانت مبادىء هذه المدرسة وفلسفتها واتجاهها تصل الى الجزائر كما تصل الى بقية الوطن العربي ويتأثر بها الادباء المعجبون من الجزائر كما يتأثر بها المعجبون من ابناء الوطن الاخرين .وكان محمد العيد في طليعة من تأثر بجبران ومدرسته وفلسفته وان كان هو ينكر انه تأثر به في فنه وثورته على اللغة واسلوب التعبير شعرا ونثرا ويزعم انه لم يتأثر به الا في فلسفة عامة ونظراته في الحياة والاحياء وقد كان من الممكن ان يتمرد محمد العيد نتيجة تأثره بمدرسة المهجر كما تمرد الشابي زميله ومعاصره ولكن لاسباب وراثية واجتماعية اكتفى محمد العيد بالتأثر الهادىء دون ان يرفع السلاح في وجه القديم والقدماء كما فعل زعماء هذه المدرسة واتباعها .

ومع ان الصورة التي تكاملت امامنا عن ثقافة هذا الشاعر ومصادرها توحي بانه لا بد ان يكون متأثرا بهاتين المدرستين المتعاصرتين او باحداهما وانه لا بد ان يهتدي بمعالم القديم الذي اطال في دراسته وتشبع من اجوائه ، فانه ينكر ويصر على انكاره انه قد تأثر باحد او اقتفى اثر كاتب معين او عانى الم الدرس وعذاب البحث ولا يعترف بسوى (كتب الله) مصدرا يستمد منها المعرفة ويستوحي منها اغراضه الشعرية وقوته الروحية ويزعم انه يقف وحده متعففا من ان يمد يده لكأس تتجاذبها الاف الايدي وذلك في قوله :

يقولون هل نقبت في الكتب باحثا ... فقلت لهم لم اقف آثار كاتب
وعفت فلم اشرب من الكاس فضلة ... يزاحمني في رشفها الف شارب
ومن كان للاسفار في العلم راغبا ... فاني للاسفار لست براغب
فحولي كتب الله من كل شارق ... تزودني علما ومن كل غارب
غنيت بها عن كل درس معذب ... وعن كل بحث في المراجع ناصب

والحق اننا لا ندري ماذا يفهم الشاعر من اقتفاء الاثر والاقتداء بالكتاب فان كان يعني التقليد المحض فقد نوافقه على انه لم يضع على عينيه عصابة سوداء ويسير في الطريق الوحل بغير دليل وان كان يعني مجرد التأثر والاقتباس الخفيف نتيجة الاشتراك الثقافي او الاتفاق الموضوعي فهذا مالا نستطيع ان نوافقه عليه مهما تغالى في الانكار .

ولعل الابيات السابقة كافية لان تنفي عنه الاصالة لو اننا اقتصرنا عليها كدليل .

ابو القاسم سعدالله